**المحاضرة العاشرة من السداسي الثاني**

تمهيد

بعد الانتهاء من أعمال المسح الأثري في جميع أطواره كما مر بنا في المحاضرات السابقة، تبدأ مرحلة جديدة من الناحية المنهجية وتكون مكملة في الوقت ذاته لهذه الأعمال المنجزة. ذلك بطبيعة الحال يكون من خلال اختيار الموقع الأثري أو الموضع المعد لإنجاز حفرية إذا كانت المسوحات التي أجريت في الميدان، غير كافية من ناحية النتائج المتحصل عليها. ولا يتأتى هذا الأمر إلا بالأساليب العلمية المعتمدة في مثل هذه الدراسات التطبيقية. ولا ريب أن الحفر أو التنقيب يمر عبر مرحلتين هامتين هما مرحلة ما قبل الحفر، ومرحلة الحفرية سنتطرق لهما فيما يلي:

**أولا\_ المصطلحات والمفاهيم**

**1\_ الحفرية لغة**

حَفَرَ الشيءَ يَحْفِرُه حَفْراً،واحْتَفَرَهُ نَقَّاهُ كما تُحْفَرُ الأَرض بالحديدة، واسم المُحْتَفَرِ الحُفْرَةُ؛واسْتَحْفَرَ النَّهْرُ حانَ له أَن يُحْفَرَ. والحَفُيرَةُ والحَفَرُ والحَفِيرُ البئر المُوَسَّعَةُ فوق قدرها والحَفَرُ بالتحريك التراب المُخْرَجُ من الشيء المَحْفُور، وهو مثل الهَدَمِ ويقال هو المكان الذي حُفِر.َ وقال الشاعر: قالوا انْتَهَيْنا وهذا الخَنْدَقُ الحَفَرُ، والجمع من كل ذلك أَحْفارٌ وأَحافِيرُ جمع الجمع. أَنشد ابن الأَعرابي جُوبَ لها من جَبلٍ هِرْشَمِّ مُسْقَى الأَحافِيرِ ثَبِيتِ الأُمِّ وقد تكون الأَحافير جمعَ حَفِيرٍ كقَطِيعٍ وأَقاطيعَ. وفي الأَحاديث ذِكْرُ حَفَرِ أَبي موسى وهو بفتح الحاء والفاء وهي رَكايا احْتَفَرها على جادَّةِ الطريق من البَصْرَةِ إِلى مكة وفيه ذكر الحَفِيرة بفتح الحاء وكسر الفاء نهر بالأُردنِّ نزل عنده النعمان بنُ بَشِير. وأَما بضم الحاء وفتح الفاء فمنزل بين ذي الحُلَيْفَةِ ومِلْكٍ يَسْلُكُه الحاجُّ والمِحْفَرُ والمِحْفَرَةُ والمِحْفَارُ المِسْحاةُ ونحوها مما يحتفر به ورَكِيَّةٌ حَفِيرَةٌ وحَفَرٌ بديعٌ وجمع الحَفَرِ أَحفار. وأَتى يَرْبُوعاً مُقَصِّعاً أَو مُرَهَّطاً فَحَفَرَهُ وحَفَرَ عنه واحْتَفَرَهُ. الأَزهري قال أَبو حاتم يقال حافِرٌ مُحافِرَةٌ وفلان أَرْوَغُ من يَرْبُوعٍ مُحافِرٍ وذلك أَن يَحْفِرَ في لُغْزٍ من أَلْغازِهِ فيذهبَ سُفْلاً ويَحْفِر الإِنسانُ حتى يعيا فلا يقدر عليه ويشتبه عليه الجُحْرُ فلا يعرفه من غيره فيدعه فإِذا فعل اليَرْبُوعُ ذلك قيل لمن يطلبه دَعْهُ فقد حافَرَ فلا يقدر عليه أَحد. ويقال إِنه إِذا حافَرَ وأَبى أَن يَحْفِرَ الترابَ ولا يَنْبُثَه ولا يُذَرِّي وَجْهَ جُحْرِه يقال قد جَثا فترى الجُحْرَ مملوءًا تراباً مستوياً.

وقال أيضا تحَفَّرَ السيلُ اتَّخَذَ حُفَراً في الأرض، والبئرُ تأكَّلَت من أعلاها وأسفلها.واسْتَحْفَرَالنهر ونحوه، حان له أن يُحفَرَ. والحافِرُ من الدوابّ ما يقابل القدمَ من الإنسان. ويطلق على القدَم إذا أريد تقبيحهاويقال عنها وقع الحافر على الحافر للتعبير عن توافق أمرين. وفلان يملك الخُفَّ والحافر أي المالَ الكثيرَ. وطريق وَطِئَه كلُّ خفٍّ وحافر مسلوك مألوف؛ وبلد مَمَرُّ العساكر، ومَدَقُّ الحوافِر يَمُرُّ عليه كل سالك. الحافِرَةُ مؤنَّث الحافر. والأرض المحفورة ويقال رَجَع إلى حافِرَته في طريقه التي جاء منها. الحِفَارَةُ صَنْعة الحَفَّار. الحَفْرُ ما حُفِر من الأشياء. والبئر الموسَّعَة فوق قَدْرِها، والتراب المستخرج من المكان المحفور. والقبر الحَفِيرَةُ،والحَفِير. وما يحفر للكشف عن الآثار جمع حفائر. والمِحْفَارُ المِسحاة وكل ما يُحْفَر به.

كما وردت في بعض المعاجم، والقواميس العربية كلمة حفر إيجازا كما يلي يحفر، حفرا الأرض أي أحدث فيها حفرة، وحفر الطريق أثر فيها بمشيه عليها. والحفر جمع أحفار، ويقال أيضا أحافير وهو التراب المستخرج من المكان المحفور. وحفر عن الشيء بحث عنه ليستخرجه، وحفر الأرض استخرج ترابها ليحدث حفرة، جوفَ الأرض. وكذا حفائر، والحفير ما حفر في الأرض. والحفار الذي يحفر، وغلب هذا اللفظ على من يحفر القبور فأطلق عليه حفار القبور وهو شائع في وسط العامة للدلالة على كل من يحفر سواء لدفن الموتى أو لمن يبحث عن الكنوز المدفونة في باطن الأرض[[1]](#footnote-2)؛ ويقال أعمال حفرية وهي أعمال حفر للبناء أو الكشف عن آثار أو أغراض أخرى، والكثير من هذا الكلام غصت به هذه المعاجم والقواميس العربية.

**2\_ الحفرية اصطلاحا**

الحفرية في الاصطلاح العلمي تعني فيما تعنيه القيام بعملية التنقيب، وأطلق عليها في اللغة الفرنسية مصطلح (la fouille) وفي اللغة الإنجليزية (excavation)[[2]](#footnote-3)أي الحفر في المواقع الأثرية بطرق وأساليب منهجية دقيقة وموجهة تخضع لبرنامج سطرت أهدافه وخطواته من لدن الخبراء في هذا الميدان. وهي أيضا عملية التنقيب عن آثار ومخلفات الإنسان الماضية سواء كانت ثابتة أو منقولة ثم صيانتها ودراستها وترميمها ونشرها في أبحاث علمية. تشرف عليها مؤسسات التعليم العالي المتخصص مثل الجامعات، ومراكز البحث الحكومية، والمعاهد العليا، والهيئات الدولية التابعة لمنظمة اليونسكو والأمم المتحدة. (ينظر الصورة رقم: 1-2) بحيث يرصد الباحثون اللقى الأثرية المتحصل عليها مثل المخلفات العمرانية من مدن، وبنايات مدنية، وعسكرية التي تدخل في نطاق الآثار الثابتة. زيادة على شقف الفخار، والخزف، والنسيج، ومختلف التحف من مواد متنوعة كالنقود، والأسلحة، والكتابات، والنقائش التي تدخل في نطاق الآثار المنقولة[[3]](#footnote-4). ولا شك أن الباحث في هذا الإطار يسعى جاهدا لتحقيق شيئين هما:

\_ تسليط الضوء عن مخلفات العصور القديمة بأحسن الطرق والأدوات والوسائل المتطورة لا سيما في عصر المعلومات الراهن.

\_ معالجة المعطيات الأثرية وتحليلها في ضوء السيرورة التاريخية، ما يجعلها مادة خام يستخدمها الباحثون والدارسون المتخصصون[[4]](#footnote-5).

من هنا تكمن أهمية الحفرية التي أصبحت منذ منتصف القرن التاسع عشر تنجز تبعا للأساليب العلمية، وقبل هذه الفترة الزمنية كانت الحفريات تجرى بطرق عشوائية لا تستند إلى منهج محدد. وكان الغرض من ذلك الحصول على التحف، والكنوز دون مراعاة أساليب الحفر التي تتم بطرق علمية، واللامبالاة التي تتبع العملية بحيث يتخلى المنقبون عن التفاصيل الصغيرة التي لا يلقى لها بالا وهي إن حسن استغلالها تعطيهم معلومات لا تقدر بثمن.

**ثانيا\_ مرحلة ما قبل الحفرية**

وتشتمل هذه المرحلة من العمل على الأمور التالية:

**1\_ اختيار موضع الحفرية**

ولا يكون هذا الاختيار إلا بناء على طرح إشكالية محورية يترتب عليها إجراء عملية الحفر والتنقيب، ولا يتم ذلك إلا بتحقيق بعض الأمور الضرورية من مثل:

\_ التأكد من الأشياء التي تدل على طول فترة استغلال الموقع في الزمن الماضي، وكبر حجم الآثار المتبقية على السطح.

\_ دراسة متأنية للميزانية المرصودة للحفرية سواء كانت من إسهام السلطات المركزية أو المحلية ومدى كفاية المبلغ المرصود للأعمال المراد إنجازها في الحقل الأثري.

\_ حسن اختيار فريق الحفرية من فنيين، وباحثين متخصصين وطلبة دراسات عليا أكفاء بمقدورهم إجراء أعمال الحفر في الموقع وينبغي أن يكون ذلك الأمر على أكمل وجه، وفي أحسن الأحوال، والظروف.

**2\_ الهدف من تنظيم الحفرية**

بعد اختيار موضع الحفرية حسبما تمليه الشروط العلمية، يتحدد الهدف من الحفر، وبإمكاننا أن نلخصها على النحو التالي:

\_ استخراج ما يمكن من مختلف المظاهر الحضارية لشعب من الشعوب، أو قومية من القوميات.

\_ البحث عن معطيات جديدة من شأنها لسد ثغرة من الثغرات في المصادر التاريخية، أو الحفر في مواقع حضارية متباينة، ومقارنتها بما سبقها من الحضارات المزامنة لها.

\_ للكشف عن قضايا مبهمة، مثل النصوص التي ذكرت مدينة طروادة فاعتبرت أسطورة إلا أن الباحث الألماني هاينريششليمان كان مقتنعا بوجودها واستخرجها للعلن.

\_ وتجرى الحفرية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار المعرضة للسرقة أو للهدم الناجم عن قيام مشاريع حكومية كبرى ذات النفع العام.

\_ تقام الحفرية التعليمية لتدريب الطلاب حتى يكونوا في المستقبل مؤهلين للقيام بأعمال التنقيب على أكمل وجه، ووفقا للأساليب الدراسية المتعارف عليها.

**3\_ رصد الأموال اللازمة لعملية الحفر**

ونعني بذلك طلب الإعانة المالية للقيام بالحفرية من مؤسسات حكومية لها الأهلية القانونية والصبغة الاستشارية مثل وزارة الثقافة بالدرجة الأولى لأن معظم المواقع الأثرية والنصب التذكارية داخلة في مجال اختصاصها فضلا عن وزارة السياحة، ووزارة التعليم العالي الوصية على فرق البحث، وهيئات تهتم بالآثار مثل المتاحف، والمنظمات الدولية كاليونسكو سالفة الذكر التي تحمي المعالم المصنفة عالميا بناء على معاهدات واتفاقيات دولية كإشرافها على قلعة بني حماد، وقصبة الجزائر وغيرها.

**4\_ الحصول على رخصة العمل الميداني**

لا يتم البدء في الحفرية إلا بتوفر التراخيص القانونية اللازمة، التي تمنحها الهيئات المخولة قانونا وذلك بتقديم ملف للسلطة الوصية يتألف من دراسة علمية تحتوي على نبذة تاريخية عن مسيرة الموقع عبر الزمن باستعمال المصادر التاريخية والدراسات السابقة المتاحة بقدر الإمكان. كما ينبغي أن يردف هذا الملف بمشروع تمهيدي يحتوي على الأهداف المسطرة التي ينوي الباحثون القيام بها، زيادة على خطة العمل الأولية المقترحة. وإدراج الرزنامة المالية الممنوحة لهيئة التنقيب، مع تحديد فاصل نهاية الأعمال.

**5\_ جمع المعلومات وتهيئة الموقع للتنقيب**

ونعني بهذا الأمر إعداد حوصلة من المعلومات الدقيقة بالرجوع إلى المكتبات العامة والمتخصصة معا، وتقصي كل شاردة وواردة بالاطلاع على الكتب التاريخية، والجغرافية، والأدبية، والشعرية القديمة التي وردت بها أخبار عن الموقع سواء كانت طويلة أو مقتضبة، ومجاميع النصوص الأثرية، والخرائط الجوية الخاصة بالموقع، وكتب التراث بمختلف أنواعها. فضلا عن النتائج الأولية للمسح الأثري، والتقارير الأولية للحفريات المنجزة في المواقع المجاورة. ولا ضير أن يستعان بالمعلومات الشفهية التي تأخذ من المسنين المجاورين للمكان لاستغلالها بما يسمح به المنهج العلمي[[5]](#footnote-6).

تبدأ هذه العملية دون ريب بدراسة مخططات ذات مقاييس محددة تهدف إلى ربط الموقع بإطاره الجغرافي، ويتبع ذلك بمسح طبوغرافي للموقع من أجل تحديد خطوط الارتفاع والتسوية بالأبعاد اللازمة، مع وضع نقاط الاسترشاد. وبعد المسح تتم عملية تقسيم الموقع إلى مخطط شبكي ذي محورين يتقاطعان في منتصف هذا الموقع، أو عند أهم نقطة فيه، وبعد ذلك يقسم إلى مناطق صغيرة يأخذ كل منها رمزا معينا مثل (منطقة ب، منطقة ج ...إلخ). وإما اسما له أهميته في الموقع مثل (منطقة البازيليكا، أو منطقة الحمام، أو الفوروم وما إليها). ثم تقسم هذه المناطق إلى مربعات يأخذ كل منها رقما عدديا مثل مربع رقم1، ومربع رقم2، بحيث يتبع تقسيمها المحاور الرئيسة للمخطط الشبكي العام للموقع. ولا بد أن توثق بالصورة، والوصف الدقيق، والرسم.

كما يترك بين هذه المربعات من الجهات الأربع سواتر ترابية، تترك من غير حفر قصد تحديد أبعاد المربعات، والحفاظ على القطاع الرأسي في الحفر، وهذا بوضع الطبقات الأثرية التي تم الكشف عنها خلال التنقيب، وكذا لسهولة التنقل بين المربعات لإزالة الأتربة بشكل مستمر.

يتم التنقيب عن اللقى الأثرية المدفونة تبعا لطريقة علمية بغية تسجيل التراث الحضاري الإنساني بدقة وأمانة، ويتطلب التنقيب عدم حفر عدة طبقات في الوقت ذاته، علاوة على متابعة العمل الميداني لحظة بلحظة للوقوف على كل ما يحدث في لون ومخلفات الطبقة[[6]](#footnote-7).



**الصورة رقم:1 الحفرية النموذج الأول.**



**الصورة رقم: 2 الحفرية النموذج الثاني.**

**6\_ السبر الاختباري**

هو عملية تنقيب منظمة بطريقة منهجية محددة في أماكن مختارة في الموقع الأثري، وتتم عن طريق الحفر العمودي المنظم الذي يختلف مقاييسه حسب طبيعة الموقع المنقب فيه.

ويخترق طبقات الموقع الأثري حتى الوصول إلى الطبقة البكر الخالية من اللقى الأثرية، أو الطبقة الصخرية. والهدف من وراء هذا كله هو أخذ عينات على أبعاد وأعماق متفاوتة للحصول على معطيات حقيقية عن طبيعة البقايا الأثرية الموجودة داخل حدود الموقع، ومعرفة تاريخها الحضاري. وهنا تكمن أهمية السبر الاختباري في تحديد عمر الطبقات الأثرية، والتشكيلات الجيولوجية، أو الدراسة الستراتغرافية. وكذا معرفة المناطق ذات الأهمية بالنسبة لغنى أو فقر الموقع من اللقى حتى يتمكن الباحثون لاحقا من التنقيب في الأماكن المناسبة ولا يذهب جهدهم سدى.

كما تساعد عملية السبر الاختباري التي تتم قبل الشروع في التنقيب الباحثين على اتخاذ القرار الأصوب حول تقنية الحفر التي ينبغي أن يسلكوها، وحول الاتجاه سيتبع لفتح الموقع؛

والحصول على معلومات حول العمق الذي تتوضع فيه اللقى الأثرية، وأماكن السويات الخالية، والاتجاه العام الذي تتبعه العمائر، وقوة كل مرحلة زمنية[[7]](#footnote-8).

ومن الطبيعي أن يبقى مجس السبر مغروزا ضمن الهيكل العام للمربع المدروس في الموقع، للتمكن فيما بعد من تحديد كل ما يظهر فيه من مخلفات وبقايا أثرية. إن المكان الذي يختار ليكون موضعا للسبر، يجب أن يختار وفقا لمعايير معقولة تراعي المعلومات المتاحة حتى تلك اللحظة من السبر، ولا يتم هذا عشوائيا. فالقيام إذا بالسبر الاختباري هو دليل قاطع على أن الحفر بدأ فعلا[[8]](#footnote-9).

7**\_ التنقيب وفقا للمنهج**

الغاية من عملية التنقيب التغلغل في السويات التي بين السبر الاختباري أهميتها، ويشرع في الحفر حسب نظام المربعات التي تتباين أبعادها حسب طبيعة الموقع والعصر الذي يرجع إليه. فمثلا المواقع التي تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ بطبيعتها وشكلها يكون المربع 1متر مربع، أو أقل خاصة في الكهوف والمغارات إذ يكون 10 سنتمتر مربع. أما المواقع التي ترجع إلى عصور الحضارات القديمة في الشرق الأدنى على تنوعها فمساحة المربع فيها تقدر ب 4 متر مربع. والمواقع القديمة الأخرى، مع الحضارة الإسلامية فتبلغ أحيانا 10 متر مربع.

تنظيف الموقع من المخلفات الحديثة قبل الشروع في العمل، ووضع نظام للعمل لتلافي الحوادث، والأخطاء، ومسبباتها، بمعنى آخر تحديد مسار للعمال داخل وخارج المربع.

وهذا طبعا لضمان الدقة في العمل، والحصول على نتائج مرضية، ومراقبة كل ضربة فأس في المربع. وتحديد أحد جوانب المربع بعرض متر أو أكثر على حسب عرض المربع لبدأ الحفر فيه، ثم تعاد العملية مرة أخرى حتى يحفر المربع بالكامل في مستوى واحد لكل طبقة[[9]](#footnote-10).

1. \_ المنجد **في اللغة والأعلام**، الطبعة الأربعون، دار الشرق، بيروت، لبنان، 2003.، ص، 142. [↑](#footnote-ref-2)
2. \_ Fatma marii and UsamGhaidan : **Technicalvocabulary for cultural propertyconservation English arabic**, Unesco, 2011., p, 69. [↑](#footnote-ref-3)
3. \_ كامل حيدر: **منهج البحث الأثري والتاريخي**، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1995.، ص ص، 31-32. [↑](#footnote-ref-4)
4. \_ F. Giligny : **La Fouille archéologique**, université paris 1, s.d., p, 11. [↑](#footnote-ref-5)
5. \_ David Gagné et autres : **Archéologie préventive**, B.N.A.Q. Canada.2012., p, 27. [↑](#footnote-ref-6)
6. \_ سعيد الحجي: **المرجع السابق**، ص، 242. [↑](#footnote-ref-7)
7. \_ سعيد الحجي: **المرجع السابق**، ص ص، 242- 243. [↑](#footnote-ref-8)
8. \_ رودريغو مارتين غالان: **المرجع السابق،** ص، 148. [↑](#footnote-ref-9)
9. \_ سعيد الحجي: **المرجع السابق**، ص، 244. [↑](#footnote-ref-10)